القصص الديني

الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

وفاة أبي بكر الصديق

٤

عبد الحميد جودة السحار

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيد » .

(قرآن کریم)

١

كان المسلمون يقاتلونَ المُرتدِّين عن الإسلام ، فلما انتصروا عليهم راحوا يُقاتلونَ الفُرْسَ والرُّوم ، وقد قُتِل كثيرٌ من الَّذينَ يحفَظونَ القُرآنَ في هذه الحروب ، وخاف عُمَرُ بنُ الخطّاب أن يضيعَ القرآنُ بعد موتِ الَّذين يحفَظونَه ، فدخَلَ على أبي بكرٍ وقالَ له :

ـ إنَّ القتلَ قد استَحرَّ (اشتدَّ وكثُر) يومَ اليمامةِ بالنّاس ، وإني لأخشَى أن يستمِرَّ القتلُ القُرَّاءِ في المَواطِن ، فيذهبَ كثيرٌ من القرآنِ إلاّ أنْ يجمَعوه ، وإني لأرَى أن يُجْمَع القرآن .

قال أبو بكرٍ لعُمَر :

ـ كيفَ أفعلُ شيئًا لم يفعلْهُ رسولُ اللّهِ ﷺ ؟!

فقال عُمَر : هو واللّه خَيْر .

فلم يزَلْ عُمَرُ يُراجعُ أبا بكر ، حتّى شرَح اللّهُ لذلك صدْرَه ، وأرسل أبو بكرٍ إلى زيدِ بنِ ثابت ، وكان يكتُبُ الوَحْيَ لرسولِ اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فلما جاء زيدٌ قال له أبو بكر :

ـ إنّك شابٌّ عاقِل ، ولا نتّهِمُك ، وقد كنتَ تكتُبُ الوَحْيَ لرسولِ اللّه ، فتتبَّع القُرآنَ واجمَعْه .

وأحسَّ زيدُ بنُ ثابتٍ أنَّ أبا بكرٍ يطلبُ منه أمرًا خطيرا ، وشعر بأنّه لو كان قد كلّفه نقلَ جبلٍ من الجبالِ لكانَ أيسرَ ممّا أمره به ، فراح زيدٌ يجمعُ القرآنَ من الرِّقاع والأكتاف (ألواحٍ من عظم الكَتِف ، كان العربُ يُنظّفونَها ويكتُبون عليها كتاباتِهم) وصدورِ الرِّجال .

استمرَّ زيدُ بنُ ثابتٍ يعمَلُ اللَّيلَ والنَّهار ، حتَّى تمكَّن من جمعِ القرآنِ في صُحُف ، ودفع بالصُّحُفِ إلى أبي بكر ، فبقِيَتْ عندَه .

٢

كان الجوُّ باردا ، فدخل الناسُ دورَهم يَحتَمونَ فيها من البرْد ، ودخل أبو بكرٍ دارَه يغتَسِل ، فخرج بعد أن اغتَسَل ينتفِض ، فدخل فِراشَه ، فأحسَّ حرارتَه ترتفع ، وأنَّ رأسَه يكادُ ينفجر ، ومرِضَ أبو بكرٍ بالحُمَّى ، فلمْ يُعدْ بقادرٍ على أنْ يخرُج ليُصلِّيَ بالنّاس .

ودعا أبو بكرٍ عبدَ الرَّحمَنِ بنَ عوْف ، وكان من خِيرَةِ صحابةِ الرَّسول ، وقال لَه :

ـ أخبرْني عن عُمَر ؟

فقال عبدُ الرَّحمن :

ـ يا خليفةَ رسولِ اللّه ، هو واللّهِ أفضلُ من رأيِكَ فيه من رجُل ، ولكنْ فيه غِلْظة .

فقال أبو بكر :

ـ ذلكم لأنه يراني رقيقا ، ولو أنّه أَفْضَى الأمرُ إليه ، لترَكَ كثيرا ممّا هو عليه . وقد رمقتُه فرأيتُني إذا غضِبتُ على الرجلِ في الشّيء ، أراني الرِّضا عنه ، وإذا لِنتُ له ، أراني الشِّدَّة عليه . لا تذكرْ يا أبا محمَّد ممّا قلتُ لك شيئا .

قال عبْدُ الرَّحمَن بنُ عوْف : نعم .

وفهم عبدُ الرَّحمن أنَّ أبا بكرٍ يُريدُ أن يستخْلِف عُمَر على المسلمينَ بعدَه .

ودعا أبو بكرٍ عثمانَ بنَ عَفّانَ وقال له :

ـ يا أبا عبدِ اللّه ، أخبرْني عن عمر .

قال عثمان : أنتَ أخبَرُ به (أي أعلَمُ به) .

ـ عَلَى ذاك .

قال عثمان :

ـ اللّهم عِلْمي به أنَّ سريرتَه خيرٌ من علانيَتِه ، وأنْ ليسَ فينا مثلُه .

قال أبو بكر :

ـ رحِمَك اللّه يا أبا عبدِ اللّه . اكتُبْ : بسمِ اللّـه الرحمن الرَّحيم . هذا ما عهَد به أبو بكرِ بنُ أبي قُحافةَ إلى المسلمين ، أما بعد ..

ثم أُغمِيَ على أبي بكر ، فكتبَ عثمان « ... فإنّي قد استخْلفتُ عليكم عُمرَ بنَ الخطّاب ، ولم آلُكُمْ خيرًا منه ...

وأفاق أبو بكر ، فقال لعثمان : اقرأْ عليَّ .

فقرأ عثمانُ ما كتب ، فقال أبو بكر :

ـ اللّـه أكبر ! أراكَ خِفْتَ أن يختلِفَ النّـاس إن افْتُلِتَتْ نفسي في غَشيَتي .

ـ نعم .

ـ جزاكَ اللّهُ خيرًا عن الإسلامِ وأهلِه .

واستخْلفَ أبو بكرٍ على النّاسِ عمرَ بنَ الخطّاب ، فسمِع النّاسُ له وأطاعوا . ودخل طلحةُ بنُ عُبَيْدِ اللّه عليه ، وكان من كبارِ الصّحابة .

وقال له :

ـ استخلفت على النّاس عمرَ ، وقد رأيتَ ما يَلقى النّاس منه وأنت معه ، فكيف به إذا خلا بهم ، وأنتَ لاقٍ ربَّك ، فسائلُك عن رعيَّتِك ؟

فقال أبو بكرٍ ، وكان مضطجعا : أجلسونى .

فأجلسوه ، فالْتفت إلى طلحةَ وقال :

ـ أبالله تُخوِّفُنِى ؟ إذا لقيتُ اللّهَ ربّى فساءَلَنى قلت : استخْلفتُ على أهلِك خيرَ أهلِك .

ودَخل عبدُ الرَّحمن بنُ عوْفٍ على الصِّدِّيق ، وَفطِن الصِّدِّيقُ إلى تغيُّرِ وجهِ عبدِ الرَّحمنِ بعد أن استخْلفَ أبو بكرٍ على النّاس عمر بنَ الخطّاب ، فقال له أبو بكر :

ـ إنّى وَلّيْتُ أمرَكم خيرَكم فى نفسى ، فكلُّكُمْ وَرِمَ أنفُه من ذلك ، يُريدُ أن يكونَ له الأمرُ دونَه ، ورأيتُمُ الدُّنيا قد أقبلتْ ، ولَمّا تُقبلْ : وهى مقبلةٌ حتى تتّخذوا سُتورَ الحرير ، ونَضائدَ الدّيباج ،

وتَألَموا الاضطِجاعَ على الصُّوف ، كما يألَمُ أحدُكم أن ينامَ على حَسَكِ السَّعْدَان (السعدان : نبت ذو شَوك حاد) .

٣

جلستْ عائشةُ ابنةُ أبي بكر ، وزوجةُ النبيِّ ، تُمَرِّضُ أباها ، فنظر أبو بكر إليها طويلاً وقال :

ـ يابُنَيَّة . إنَّ أحبَّ النّاس غِنًى إليَّ بَعدى أنتِ ، وإنَّ أعزَّ الناس فقرًا عليَّ بَعدى أنتِ ، وإنّي كنتُ نَحَلتك (أعطيتك) أرضي التي تعلَمين ، وأنا أحبُّ أنْ تَرُدِّيها عليّ ، فيكونَ ذلك قسمةً بين وَلَدى على كتاب اللّه ، فإنما هو مالُ الوارث ، وهما أخَواك وأُختاك .

فظهَر الدَّهشُ في وجهِ عائشة ، فما لها إلا أختٌ واحدَة ، هي أسماء ، وقد ذهبتْ مع زوجِها إلى اليَرْموك لِقتال الرّوم ، فما بالُ أبيها يقولُ : أختاك ؟! فقالتْ في عجب : أُختاى ؟

فقال أبو بكر في هدوء :

ـ ذو بطن ابنةِ خارجَة ، فإنى أظنُّها جارية .

كانت حبيبةُ بنتُ خارجةَ زوجتُه حاملا ، فلم يشأْ أن يُهمِلِ ولَده الّذى لايزالُ فى عَالَم الغيْب ، بلْ راح يُفكّر فيه ، ويعمَلُ على إحقاق حقّه قبلَ أن يراه .

واشتدَّ المرضُ عليه ، فنظر إلى زوجتِه أسماءَ بنتِ عميْس وقال : غَسِّلينى .

فقالتْ أسماءُ فى ضيق فما كانتْ تُحِبُّ أن تُغسِّل زوجَها بعد موتِه :

ـ لا أُطيقُ ذلك .

فقال لها أبو بكر :

ـ يُعينُك عبدُ الرَّحمن بنُ أبى بكر ، يصبُّ الماء .

والتفتَ إلى عائشة وقال :

ـ فى كمْ كُفِّنَ رسولُ الله صلّى اللّهُ عليه وسلّم ؟

فقالت عائشة . فى ثلاثةِ أثواب .

فقال أبو بكر :

ـ اغسِلوا ثوبَيَّ هَذَيْن ـ وكانا ممزَّقين ـ وابتاعوا لى ثوبًا آخر .

فقالت له عائشة :

ـ يا أبت إنّا موسرون .

فقال أبو بكر فى هدوء :

ـ أىْ بنيَّة ، الحىُّ أحقُّ بالجديدِ من الميِّت ، إنما هما للمُهْلَةِ (للقيح) والصَّديد .

وبدأتِ الشَّمسُ تغرُب ، واشتدَّ المرضُ بأبى بكر ، وراحُ يُعالج سَكَراتِ الموْت ، وفتح عينيْه ، وقال بصوتٍ خافت :

ـ يا عائشة ، ادفِنونى بجوارِ رسولِ اللّه .

ثم أسبل جفنيه ، وأخذت روحُه تُحشْرِجُ فى صدرِه ، فقالت عائشة :

لعمرُك ما يُغنى الثّراءُ عن الفتَى

إذا حشرجتْ يومًا وضاقَ بها الصَّدرُ

فبان الغضب في وجهِ أبي بكر ، ساءَه أن تتمثّل أمُّ المؤمنينَ بذلك الشّعر ، ولا تتمثّل بالقرآن ، فقال :

ـ ليسَ كذلك يا أُمَّ المؤمنين ، ولكن : « وجاءتْ سكرةُ الموتِ بالحقّ ، ذلك ما كنتَ منه تَحيد » .

واشتدَّ عليه الموتُ فقال هامسا :

وكلُّ ذى إبلٍ موروثٌ وكلُّ ذى سلب مسلوبُ
وكلُّ ذى غَيْبةٍ يئوبُ وغائبُ الموتِ لا يئوبُ

وراح يجودُ بأنفاسِه الأخيرة ، وكان آخرُ ما نطقَ به :

ـ « ربِّ توفّني مُسلمًا ، وألحقني بالصّالحين » .

وفاضت روحُ أبي بكر ، خليفةِ الرّسول ، فحزنَ النّاسُ لوفاتِه حُزنًا شديدا ، وراحوا يُجهّزونَه لَيْلا ، ثُمَّ حُفِر له لَحْدٌ بجوارِ لحدِ النّبيِّ في بيتِ عائشة ، وحملوه ، ودخل قبرَه عُمَرُ وعثمانُ وطلحةُ وعبدُ الرّحمنِ ابنُ أبي بكر .

دُفِن أبو بكر ، وسمع عُمَرُ نُواحا ، فقد أقامتْ عليه عائشةُ النّوحَ ، فانقبضَ عمر ، وسار إلى بابِ عائشة ، ونهَى النّساءَ النائحاتِ عن البكاء ، فأبينَ أن ينتهين ، فتحرَّك غضبُ عمرَ ، فالتفتَ إلى رجل معه ، وقال له :

ـ ادخل فأخرجْ إليّ ابنةَ أبي قُحافة ، أختَ أبي بكر .

وبلغ ذلك سمعَ عائشة ، فقالتْ للرَّجلِ من وراءِ الباب :

ـ إني أُحرِّجُ عليك بيتي .

فأحجمَ الرجل ، فقال له عمر :

ـ ادخل ، فقد أَذِنْتُ لك .

فدخل هشام ، فأخرجَ أُمَّ فروةَ أُختَ أبي بكر إلى عمر ، فعلاها بالدِّرَّة ، فضربها ضَرَبات ، فتفرَّق النائحات حينَ سَمِعْن ذلك .

وخرجت عائشةُ ووقفتْ على قبرِ أبيها فبكت ، ثم قالَت :

ـ نضر اللّه يا أبتِ وجهَك ، وشكر لك صالحَ سعيك ، فقد كنتَ للدُّنيا مُذِلاً بإدبارك عنها ، وللآخرةِ مُعزًّا بإقبالك عليها ، ولئن كان أعظمَ المصائبِ بعد رسولِ اللّه صلّى اللّهُ عليه وسلّم رُزْؤُك « مصيبتك » ، وأكبر الأحداثِ بعده فقدُك ، إن كتابَ اللّه عزَّ وجلَّ ليَعِدُنا بالصَّبْر عنكَ ، حسْنَ العَوَض مِنك . وأنا مُتنجِّزَةٌ من اللّهِ موعدَه فيك ، بالصَّبْر عنك ، ومُستعينَةٌ كثرةَ الاستغفار لك ، فسلّم اللّه عليك ، توديعَ غيرِ قالِيةٍ لحياتِك ، ولا زارِيةٍ على القضاءِ فيك .